تجارب معلمين

خواطر معلمة

(تجربتي مع مركز القطان)

نبيلة حميد

أبلغ من العمر خمسين عاماً، وأجد في نفسي ثورة، بركاناً، لا بل حنين ... إلى ماذا؟! إلى خطة تحسين ... أجلس ساعات أمام كراسة التحضير دون أن أكتب كلمة ... هذه الكراسة التي تطويني بين سطورها، وتعصرني بين أعمدتها، ماذا أدوِّن بها؟! فطرق التدريس واضحة، مبرمجة، مبوبة ومتسلسلة. هناك – ووسط طلابي – نماذج متعددة. هل يا ترى يدخل الكل تحت كل الدبلجة؟!

نأخذ العديد من الدورات التدريبية، وأساليب وطرقاً حديثة. هل من متابعٍ لإدراجها أو العمل بها؟

أسمع أصواتاً وتهاليل، وربما يتهمونني بأني من كوكب آخر ... ألا تقرئين أو تسمعين بهذه النهضة التعليمية والمواكبة العصرية؟! أجل، قرأتُ وتمعنت وتعمقت ونفذت.

ولكن هناك شيء أجهله. أريد حلقة الوصل، تلك التي أفتقدها! وأراها حلقة مضيئة، جاءت تشدني إلى مركز العلم والتطوير التربوي منذ أن زرت هذا الصرح الشامخ، منذ أربع سنوات وأنا أجد نفسي هناك.

كتبت في البداية أنني أبلغ من العمر الخمسين ... منها خمس سنوات خدمة في أواخر الثمانينيات بين غزة والعريش، وخمس عشرة سنة مديرة في السعودية خلال التسعينيات، والآن معلمة للمرحلة الابتدائية في فترة الألفين، عملتُ بها مركزة لعدة دورات تدريبية. ولكنني أبصرت النور هنا في صرح القطان التربوي ومجلته رؤى تربوية، فحين أبحر بين سطورها، وأقرأ تجارب معلميها، أحس أنني أنا، نعم فعلت هذا وهذه، وسأجرب هذه وتلك ... لماذا؟! تسألني أنت، وأسأل نفسي دائمًا، ولكن الإجابة تشرق بابتسامة أبنائي في غرفة الفصل، لأجلهم ... نعم، لتحسين المستوى.

دعاني المركز لحضور مؤتمره التربوي يومي الجمعة والسبت بتاريخ ٤–٥ آذار الماضي. وطُرح فيه موضوعاً رأيتُ مركبي –السيميائية– بكل معناها اللغوي والاصطلاحي، شيء شدَّني للكشف والاستكشاف لعلاقات دلالية غير مرئية من خلال التجلي المباشر للواقعة، ذلك التدريب للعين على التقاط الضمني والمتواري والمتمنع، لا مجرد الاكتفاء بتسمية المناطق أو التعبير عن مكونات المتن.

من خلال حروف هذه الكلمة (السيميائية)، وجدت تفسيراً لحيرتي، وتذكرت كلمات نطقها أبنائي: ما أروعك معلمتي! تشرحين درس القراءة كما تشرحين مقطوعة شعرية ... .

وآخر قال: كنت أكره القراءة، ولكني أصبحت أحبها؛ فأنا أشعر أنني كاتب أو شاعر ... أحلق وأطير مع الكلمات.

كنت أحاول وأعمل ولكن دون وعي مني أن لهذه المنهجية خطوات، وتحدث أستاذي القدير (عطية العمري) وتفضل مشكوراً فأعطاني فكرةً موجزة، ووزِّعت نشرات توضيحية مرفقة.

أما أول خطواتي مع طلابي في الصف السادس تزامنت مع درس (سجادتنا الصغيرة) بعد المشاركة والتوضيح أحسست بطعم خاص، وبتذوق جديد لكل كلمة يلفظها طفلي، أعطيه فكرة دون أن أذكر كلمة – سيميائية– والآن نبحر على شاطئها ونغترف من عذوبة حروفها وبعض أفكارها وعناصرها من العنوان: ما رأيك في العنوان (سجادتنا الصغيرة)؟! هل هو مناسب لمحتوى الدرس؟ ماذا تعني كلمة سجادة؟ لم اختارت الكاتبة كلمة صغيرة؟ اختر عنواناً آخر؟ لماذا اخترت هذا العنوان؟ (قارن بين عنوانك وعنوان الكاتبة) أيهما أفضل؟ لماذا؟ فحين تضع تلميذك على قمة الهرم ليبدي رأيه، وتشعره بأنه الملك، يمكن أن يضع دستوراً آخر وعنواناً آخر أو مشابهاً تنفتح به كل أزاهير القلم، ويفوح بأريج العطاء. فهذه أسئلة، ولك أن تضيف للعنوان. فما بالك لو جعلتهم يرسمون الملامح الداخلية أو الخارجية للشخصيات، أو يبحرون مع الصور الجمالية ودلالات الكلمات؟ لو تركتَهم يتذوقون هذه الكلمات المدرجة بين سطور درسهم، لوجدتهم يضعون دلالات تعجز أن تتوصل إليها، ربما كنتُ أعطي دلالة للكلمات، ولكن من وجهة نظري أنا، فما بالك إنْ وصَلَتْكَ من وجهة نظرهم هم!

أصبحتُ يومياً أستمطر أفكاراً، فهذا يسرد القصة بأسلوبه، وآخر يستلهم المعنى الرائع من المفردات، وتلميذ يرسم بالألوان ما يعجز عن كتابته، وذلك يصمم أوراق عمل بطريقة مبتكرة، وهذا يرفق لوحة فنية نسجها من خيوط، وتلميذ يقول: شاركني أبي في تحوير الدرس إلى نشيد، ومجموعة ترجو تمثيلها ... .

ألا ترى معي أنني في تكامل حقيقي مع طلابي؟! ألا ترى معي أنني في أدب أطفال؟! ألا ترى معي أنني في دراما؟! في مهارات حياتية؟ في حقائب تعليمية؟ في مجموعات بؤرية وتعليم أقران؟! في كتابات إبداعية؟! في أنماط تعلُّم؟!

وبينما أنا في زهوة ونشوة فرحتي، جاءني موجهي يطلب مني أوراق عمل. سألت: لماذا؟ قال: لأقدمها للجهة المسؤولة؛ لأنهم يتساءلون: ماذا قدَّمَتْ لتستحق تقدير (ممتاز)؟!

وقفتُ واجمة، حقاً ماذا أقدم أنا؟ وماذا يقدم الغير؟ أنقدم لنأخذ الشهادة؟ وممن؟ أنتفانى لنحصل على حروف مرسومة على ورقة–ممتاز؟ وماذا أجني من ورائها ؟ لا جواب شكر، ولا علاوة ولا حفلة تكريم ولا حتى إشهار. أتصدِّق أننا نسعى وراء شيءٍ متوارٍ ومنزو ... لا، هل أطمع للشهرة ؟!

شهرتي إرضاء ربي وضميري وتحمُّل مسؤوليتي.

شهرتي إرضاء ذاتي وإشباع طموحي ورغبتي.

شهرتي احتضان أطفالي بين مقاعد غرفتي.

ولكن صمَّمتُ أن أطرح هذا المقال والعنوان الرائع على مديرتي. تردَّدَتْ وتساءَلَتْ، فأعطيتها فكرةً موجزة وتعريفاً لهذه السيميائية.

وقدمتُ تحليلاً سيميائياً مبسطاً لدرس (سجادتنا الصغيرة) مع نتاج هذا الدرس وأنشطة أطفالي، قلت لها: اقرئيه بتمعن، أرجوكِ، وإن لم يعجبك آتيك برُزَم من أوراق العمل والتدريبات، وذهبتُ بها، ومرت الساعات طوالاً. وفي صباح اليوم التالي، كنت في المدرسة مبكرة وانتظرتُ مديرتي، وجاءت بابتسامة مهللة ...

قلت: ما رأيك؟ قالت: إنك أكثر من رائعة، إنني أشعر أنني أمام كاتبة، فأنا قرأتُ الدرس من الكتاب، ولكني من هذا التحليل أُبحر وأتذوق روعة الكلمات والدلالات ومعالم الشخصيات. استمري وحللي. أنقذتني تلك الكلمات ... وزادت من إيماني أننا بأمس الحاجة لهذه السيميائيات.

نبيلة رشدي حميد – معلمة في مدرسة مصعب بن عمير الأساسية (ب) / شمال غزة